د. حياة جابي

التوازن المعرفي في فكر مندور بين الحداثة والتراث

جامعة لمين دباغين سطيف 2

الملخص: كانت للثقافة الغربية بتوجهاتها الفكرية المختلفة حضورها الكبير في رؤية محمد مندور الفكرية والثقافية والنقدية، لذلك نراه في كثير من آرائه يتخذ الآخر مكانة بارزة لديه، ولم يتوان لحظة عبر مساره النقدي الطويل في تبني أفكاره ، ولكن بقدر وعيه بالمنجز الغربي و أهميته لم يكن بمعزل عن التراث العربي، ولم يعش حالة الاستيلاب الحضاري والثقافي كما عاشها بعض نقاد العرب في هذه الفترة، فجاءت تجاربه عاكسة على نحو عميق الوعي بمشكلات التحديث وتحدياته كما تحمل بعض الحلول لتلك المشكلات.

فإلي أي حد يستطيع هذا الناقد الموسوعي الموسوم "بشيخ نقاد " أن يحقق هذا التوازن المعرفي بين التراث والحداثة؟ وهل يتمكن من وضع يده على الحلقة الفعالة في وصل حاضرنا بماضينا وصلا طبيعيا ورؤية كل منهما في ضوء الآخر على نحو يثري كليهما ويقدمه في صورته الحقيقية؟

الكلمات المفاتيح: الآخر،الحداثة،الاستقبال، التراث والتأصيل

Résumé : La culture occidentale, avec ses diverses orientations intellectuelles, a eu une grande présence dans la vision intellectuelle, culturelle et critique de « Mohamed Mandour ». Par conséquent, on voit qu'«autrui » occupe une place de choix dans beaucoup de ses opinions, et il n'a pas cessé d'adopter ses idées tout au long de son parcours de critique. Mais même s'il était conscient des réalisations occidentales et de leur importance, il n'était pas à l'écart du patrimoine arabe, et il n'est pas passé par l'état d'assimilation culturelle vécu par certains critiques arabes au cours de cette période. Ses expériences reflétaient une profonde prise de conscience des problèmes et des défis de la modernisation et de certaines solutions à ces problèmes.

Dans quelle mesure ce critique encyclopédique, nommé « Sheikh Naqqad », peut-il atteindre cet équilibre cognitif entre patrimoine et modernité ? Est-il capable de mettre la main sur le cercle efficace afin de relier naturellement notre présent à notre passé et de se voir dans la lumière d'une manière qui enrichit les deux et les présente dans leur véritable image ?

Mots clés : autrui, la nouveauté, l'accueil, le patrimoine et l'enracinement.

مقدمة:

الغرب في حياتنا، في يومياتنا، نختزنه في عقولنا ولا نستطيع التخلص منه شئنا أم أبينا، فهو حاضر حين نتكلم وحين نكتب، وحين نقرض الشعر، وحين نفكر وحدنا، ولا نبالغ إذا قلنا إن حضوره معنا ليس ابن العصر الحديث، بل إن حضوره يضرب في أعماق التاريخ.

فالواقع التاريخي للأمة العربية الإسلامية كان شاهدا في الماضي على تفتحها على الآخر والتعامل معه والأخذ منه ما فيه صلاحها، فقد كان المسلمون في الماضي على قدر كبير من الاطلاع على فلسفة الآخرين وعلومهم ولم يعتبروا أن هذه العلوم هي ملك للآخر، فلا يجب الاطلاع عليها، بل اعتبروا معرفتها ضرورية، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، لذلك فلا عجب أن نجد أن هذه المثاقفة قد أثمرت وأينعت وآتت ثمارها في عهد العباسيين، خاصة في فترة الخليفة المأمون الذي أولاها أهمية كبيرة بعد إنشاء بيت الحكمة التي لم تلبث أن تحولت إلى جامعة قائمة بذاتها أثرت في بقية الجامعات الأخرى ومنها المجتمع الغربي الذي راح يحتذيها ويقتفي أثرها. وهكذا استطاع المسلمون العرب أن يغيروا مجرى تاريخ الإنسانية بفعل التوسع والاحتكاك والمثاقفة، وما دخول الأندلس إلا صورة من صور هذا التطور. فالنزعة التطورية والاحتكاك بالآخر متصلة بجوهر الثقافة العربية الإسلامية وأن الفتوحات أفادت واستفادت ،وهو منحى ثقافي وإيجابي إذا استطاع المثقف العربي أن يستثمره ويطوعه لما يحفظ تميزه وأصالته ويحذر تلك الاستهلاكية الفكرية والثقافية التي تحمل في بذورها الرؤية الدونية للذات.

التوازن المعرفي في فكر مندور بين الحداثة والتراث

محمد مندور والآخر:

كان محمد مندور من النقاد الأوائل الذين اعتنوا اعتناء شديدا بالتنظير النقدي، إذ حاول أن يطعمه بالكثير من الرؤى والأفكار الغربية، فعمل على كشف ممكنات المناهج النقدية وتطبيق جوانب منها على النص الأدبي، فأسس بذلك نظرية نقدية تحمل الكثير من الآفاق الجديدة وتعمل على تخليص النقد العربي من آثار الإسقاط الخارجي ومن تلك الروح العدوانية وأتى بميزانه الجديد لتقويم الأعمال الأدبية والذي استمده في مجمله من أصول المدرسة الفرنسية .

إن ارتباط محمد مندور بالآخر قد بدأ مع طه حسين الذي لفت انتباهه إلى أهمية المناهج الغربية في دراسة الأدب حتى إذا ما سافر إلى فرنسا (1930-1939) كانت هذه السنوات التسع كافية لتكوينه تكوينا غربيا، فالتقى هناك بالثقافة الإغريقية واللاتينية وتشبع بالروح الفرنسية، إذ تعلم من "لانسون" كما تعلم من " مييه" وتلاميذ "دي سوسير" ، كل هذا الزخم الفكري وجهه إلى فهم عميق بالأدب وإلى هذه الحقيقة يشير مندور" وإن كان التأثير

الأكبر في الحقيقة هو بأساتذة السوربون وبالنقاد الغربيين من أمثال ألبير باييه وبلوك وشارل لالو، ثم كبير الأساتذة في فرنسا "جوستاف لانسون" والذي وإن لم أتتلمذ عليه هو إلا أنني تتلمذت وتأثرت بمؤلفاته وبخاصة كتابه الدسم العميق عن تاريخ الأدب الفرنسي، ومقالة عن منهج البحث في الأدب"[1].

كما كان لاختلاط مندور بالفرنسيين هناك الأثر الفعال في تكوين منهجه الفكري، فقد أصبح يفكر باللغة الفرنسية وهي لغة يؤكد بنفسه أكثر تحديدا ودقة من غيرها، يقول مندور" فمن المؤكد أن تغيير لغة التفكير لا لغة الكلام فحسب هي النقلة الكبرى في منهج تفكيري العام بل إحساسي أيضا"[2]

وهذا يكشف لنا المصادر الثقافية التي طعمت عقل مندور والتي استمدها في مجملها من واقع اتصاله بالثقافة الغربية خاصة المدرسة الفرنسية التي شكلت في مجملها مصدرا أساسا ورافدا ممولا للعقل البحثي المندوري، ولذلك لم يتوان لحظة منذ عودته من أوربا إلى الدعوة إلى تبني هذه الأفكار وقد ظهرت هذه الآراء وتجسدت في كثير من كتبه من مثل (في الأدب والنقد) و(في الميزان الجديد)، و(النقد المنهجي عند العرب)يقول " منذ عودتي من أوروبا أخذت أفكر في الطريقة التي نستطيع بها أن ندخل الأدب العربي المعاصر في تيار الآداب العالمية و ذلك من حيث موضوعه و مناهج دراساته على السواء ولقد كنت أؤمن بأن المنهج الفرنسي في معالجة الأدب هو أدق المناهج"[3]. وهكذا نلاحظ أن الاتصال بالغرب كان الهدف الأول في حياة مندور فإيمانه بالمنهج الفرنسي في تحليل الخطاب جعله يراه أنه أدق المناهج وأنفعها في تفسير النصوص.

ولعل من الأفكار الهامة التي تستوقف الباحث مفهوم محمد مندور للأدب والتي ترجع خصوصيته إلى شكله وصياغته، ووجد أن أمر الصياغة في الأدب جليلا إذ هي ليست شيئا ثانويا تستعمل لمجرد تجميل معنى أو تنميق عبارة بقدر ما هي خلق فني لغوي، وفي هذا الشأن يقول:" أعتبر العمل الأدبي بنية لغوية ترتبط بالخلق الفني في ذاته وليست تعبيرا عن أفكار أو معان كانت قبل ذلك عند الكاتب إذ لا وجود لأفكار مجردة بهذا المفهوم قبل أن تتجسد في اللفظ"[4]

وبهذا الفهم الجيد للأدب يتبنى محمد مندور المنهج اللغوي الذي يعتمد على ما تبوح به الكلمة الفنية من خصائص جمالية ترتبط بالعمل الفني، وبما أن الأدب تشكيل لغوي تكون النتيجة- والحال كذلك- ميلاد المنهج من رحم اللغة، ولا شك أن ثقافته اللغوية العميقة ودراسته

---

[1]- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد العربي،دار الأدب، بيروت، 1979 ص52

[2]- فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب، 1988، ص30

[3]- محمد مندور، في الميزان الجديد، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1944، ص 104.

[4]- فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب، 1988، 128

الصوتية قد ساعدته على إدراك أهمية الصياغة والشكل، وقد جاء كتابه(في الميزان الجديد) بسط لهذه النظريات العامة والإجراءات المنهجية، معتمدا منهجا جماليا، واقفا على مواطن الجمال والقبح في قصائد مهجرية، مؤكدا على التهامس في شعر المهاجر أو ما أسماه بالشعر المهموس الذي يتميز عن غيره بإنسانيته وعمقه وبساطته في آن واحد يقول:" والشاعر القوي هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه في نغمات حارة"[5]وهو ليس ارتجالا" فيتغنى الطبع في غير جهد ولا إحكام صنعة، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد"[6]ولا يجب أن يقتصر الشعر المهموس على المشاعر الشخصية وإنما هو إنساني رحب " فالأديب الإنساني يحدثك عن أي شيء فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب"[7].ولأجل ذلك نراه يهيب بالشعر المهجري سيما منه قصيدة "أخي" لميخائيل نعيمة والتي يقول في بعض مقاطعها:

أخي إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه

وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانه

فلا تطلب إذا ماعدت للأوطان خلانا

لأن الجوع لم يترك لنا صحبا نناجيهم

سوى أشباح موتانا

أخي، إن عاد يحرث الفلاح أو يزرع

ويبني بعد طول الهجر كوخا هدّه المدفع

فقد جفت سواقينا وهدّ الذل مأوانـــــــا

ولم يترك لنا الأعداء غرسا في أراضينا

سوى أجياف موتانا

فقد أنصت إليها واستشعر جلالها ليرى ما فيها من "جمال التصوف ورهبة الدين ونبل الخشوع الصامت الدامي"[8]

---

[5]- محمد مندور، في الميزان الجديد، ص90

[6]- المرجع نفسه 69

[7]- المرجع نفسه والصفحة

[8]- المرجع نفسه 71

ويصل تجاوب مندور مع هذا النص إلى غاية الذوبان فيه فيقول:" هذه المقطوعة الأخيرة التي بلغت غاية الألم، ولكني لست أدري هل توحي إلى القارئ بما توحي به إلي من ألم أم لا؟ إني أحس فيها إثارة لهمتي وتحريكا لمعاني العزة في نفسي...في هذه النغمات ما يلهب وطنيتي بل إنسانيتي"[9]

وهكذا نلاحظ كيف يرتكز محمد مندور على ذاته وإحساسه فيتذوق الكلمة الجميلة التي تشبع إحساسه الباطني وصداه الإنساني، لأن الشعر الفني عنده "هو الذي يصدر عما تحمل الألفاظ من إحساسات صادقة قريبة من نفوسنا، أليفة إليها"[10] و" وأما الطنطنة، وأما تضخيم التوافه، أما عجيج الألفاظ، وأما التبجح بالقوة الجوفاء، فهذه وسائل العجز والادّعاء والجهل"[11].

وعلى نفس النغمة يواصل مندور الوقوف عند الطاقة التعبيرية التي تحملها اللغة، ومدى قدرتها على رسم صورة التي تحدث تفاعلا مع خيال المتلقي، فتستوقفه موسيقى النص وقدرته على إحداث أثر في نفس المتلقي، لذلك يهيم بتلك التعابير التي تكسر نمطية اللغة فتعطيها طابعا جديدا مستوحى من عالم الشاعرالذي ينظر إلى اللغة ومفرداتها من زاويته الخاصة المحكومة بتجربته الفردية "فتبدو الحقائق فيها من خلال ستار شفيف يضفي عليها إيهاما محببا يثير الفضول"[12].

وبناء على ما تقدم نلاحظ كيف أكد مندور على ترسيخ مبدأ خفاء العلة في الوقوف على جماليات النص الأدبي لأنها مزايا خفية لا يقف عليها إلا أصحاب الأذواق الصافية التي صقلتها الدربة وطول الممارسة فيتخذ من الذوق شرطا أساسيا في نقد الأدب وهو في كل متأثر معجب بتأثرية" لانسون " الذي يقول في هذا الشأن :" إننا نكون أكثر تمشيا مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في دراستنا وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها... وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها، فلنستخدمه في ذلك صراحة ولكن لنقصره على ذلك في عزم، ولنعرف كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده، وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هي عدم الخلط بين المعرفة والإحساس"[13].

وظلت هذه الحاسة هي المحرك الرئيسي الذي انبنى عليه كتابه "النقد المنهجي عند العرب" فيفضل الناقد ابن سلام الجمحي على ابن قتيبة لأن هذا الأخير أحدّ تفكيرا منه إحساسا أديبا، ويعجب بعبد العزيز الجرجاني ،لكنه يضعه في المرتبة الثانية بعد الآمدي لأنه كان أميل

---

[9]- المرجع نفسه 74،75

[10]- المرجع نفسه، ص 72

[11]- محمد مندور، في الميزان الجديد، ص105

[12]- جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، د.ت، ص 73

[13]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العربومنهج البحث في اللغة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1996، ص17

إلى المنطق والقياس منه إلى تحكيم الذوق والحس الفني، وعاب على كثير من النقاد غلبة التفكير العقلي المنطقي كقدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري وهذا ما يؤكده قوله:" صدرت عن المذهب التأثري في كتبي الأولى مثل " النقد المنهجي عند العرب" الذي فضلت فيه نقاد العرب القدماء التأثريين من أمثال الآمدي والقاضي الجرجاني... بينما أنكرت جدوى أصحاب القواعد والمبادئ البلاغية كقدامة وأبي هلال العسكري وغيرها"[14]

وعبر مراحله في تأليفه التنظيري لتحليل الخطاب النقدي كان مندور ينتقل من منهج إلى آخر، فمن ذوقي تأثري إلى منهج أيديولوجي إلى بنيوي بفرعيه الشكلي والتكويني، وكانت تحولاته أمرا طبيعيا نتيجة تطور المناهج وتغيرات الواقع ومتطلبات العصر.

لقد تفاعل مندور-إذن-مع المناخ الثقافي الجديد، فلم يتخلف عن الحياة الثقافية بمصر ولم ينعزل عنها، بل تجاوب معها واستطاع بعقله النير أن يستوعب المهام الجديدة المطروحة على الساحة الثقافية، وساير الأدب والفكر الفني هذا التيار الثوري الجديد،

ويتناول مندور هذا الفهم الجديد فكانت الواقعية هي نتيجة حتمية فرضتها الحركات الوطنية والسياسية وما تلاها من تفكير في بناء مجتمع جديد، يقول مندور: "نحن اليوم نهدّم ماديا أو قد هدمنا مجتمعا قديما متخلفا متفسخا لنقيم مجتمعا جديدا تقدميا موحدا عادلا. ولأجل ذلك لا بد أن يتحطم سلم القيم القديم ليقوم محله سلم جديد يحكم الروابط الاجتماعية والأخلاقية الجديدة اللازمة لبناء المجتمع الجديد"[15] .وفي ظل هذا التغيير يوضح مندور المفهوم الحقيقي للأدب الهادف أو ما يعرف بأدب الالتزام فيقول:" الأدب الهادف ليس الهدف في ذاته، أي علته الغائية، وإنما المقصود به خدمة الأدب قضايا المجتمع الجديد وارتباطه بالحياة الحاضرة وحياة المجموعة البشرية"[16].

إن مسايرة الأدب لخدمة المجتمع ليس بالأمر الجديد، إذ طالما واكب الأدب حياة الشعوب في عصورها المختلفة، إنما الجديد في ذلك كما يراه مندور" الدعوة إلى تحمل الأدب مسؤولية أكبر بإزاء قضايا العصر ومعارك الشعوب، فلا يكتفي بأن يتأثر بها، بل يعمل لكي يؤثر فيها أيضا تأثيرا إيجابيا فعالا.[17]وفعلا قد تحمل مندور هذا العبء الثقيل إذ سخر قلمه لخدمة الحياة السياسية والاجتماعية فحاول من خلال ذلك بحث الحياة في المجتمع المصري بمحاربة كل مظاهر التخلف والاستبداد والتبعية.

محمد مندور والتراث:

---

[14]- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد العربي، ص45

[15]- محمد مندور، مزيد من الدراسات الإنسانية، مجلة الكاتب، العدد 30/ سبتمبر 1963، ص5

[16]- محمد مندور، جولة في العالم الاشتراكي، سلسلة البحث الجديد، مصر 1957، ص100

[17]- محمد مندور، الأدب ووحدة الفكر العربي، مجلة الكاتب/ العدد32 نوفمبر،1963، ص4

رغم هذا الزخم الفكري الغربي الذي كان ينهل منه محمد مندور والذي كان مصدرا أساسا ورافدا ممولا في مسيرته النقدية الثرة الطويلة، إلا أن ذلك لم يمنعه من التنقيب في ذخائر تراثنا الثري ليكشف ما فيه من كنوز ويصل وصلا طبيعيا فعالا بين ماضينا وحاضرنا ويطعم ما ذهب إليه محمود الربيعي الذي يقول:" بأن رفض التراث باسم المعاصرة أمية ثقافية اعتل بها نقدنا العربي الحديث والمعاصر"[18]، لذلك نراه يكشف عن أهمية المعرفة التراثية وضرورتها لتأسيس حضارتنا العربية فيكون من السذاجة إغفالها أو الطموح لتحقيق حداثة بالقفز عليها باعتبارها معطى ميتا انتهت صلاحيته بانتهاء الظروف التاريخية والثقافية التي أنتجتها، وتأسيسا لهذا الفهم يأوي مندور إلى ركن متين من أركان التأصيل وهو التراث ويحاول أن يطبق هذه الثقافة الأوربية الفرنسية تطبيقا يكشف أصالة هذا التراث الأدبي ويبرز ما في التراث النقدي بوجه خاص من كنوز " نستطيع إذا عدنا إليها وتناولناها بعقولنا المثقفة ثقافة أوربية حديثة أن نستخرج منها الكثير من الحقائق التي لا تزال قائمة حتى اليوم"[19].

وبهذا الفهم الجيد يتمكن مندور من اكتشاف غنى وثراء التراث النقدي العربي القديم خاصة عندما سلط أدواته النقدية على ذلك الناقد الجليل عبد القاهر الجرجاني فيراه قد اهتدى إلى"مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير"[20] ويستند هذا المذهب على نظرية يرى" أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء"[21] لينتهي في الأخير وبعد دراسة تحليلية لمنهج عبد القاهر إلى الربط بين أفكاره وأفكار علماء اللغة المحدثين في أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات، وعلى هذا الأساس بنى الجرجاني تفكيره اللغوي" [22]، ويقول أيضا داعما هذه الأرضية:" فمنهج عبد القاهر هو المنهج المعتبر اليوم في العالم الغربي، ولقد حددت الإنسانية معرفتها بتراثها الروحي منذ أن أخذت به في أوائل القرن التاسع عشر"[23]. ولذلك نراه يدعو إلى ضرورة الأخذ بهذا المنهج لأنه خليق بأن يجدد فهمنا بالتراث، كما حدث في أوربا مع منهج العالم السويسري "فرديناند دي سوسير"

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شكل من أشكال الأسبقية الحضارية لبعض الأفكار الصائبة التي لم يصل إليها الغرب إلا في القرن العشرين، وهذا ما يؤكده محمد زكي العشماوي الذي أثبت أن ثمة أفكار كثيرة في تراثنا النقدي تقارب إلى ما انتهى إليه الفكر الحديث في الدراسات اللغوية والبلاغية فيقول:" وشبيه ما انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني في موضوع دلالات الألفاظ وارتباطها لبعضها البعض بما انتهى إليه كثير من النقاد

---

[18]- محمود الربيعي، من أوراقي النقدية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص41

[19]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة، ص5

[20]- المرجع نفسه، ص333

[21]- محمد مندور ، في الميزان الجديد، ص 185

[22]- محمد مندور، في الميزان الجديد،ص185

[23]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص 339

المحدثين. فلو أننا قرأنا الفصلين الأوليين من كتاب فلسفة البلاغة للناقد الإنجليزي المعاصر إ.أ. رتشاردز لوجدنا أن كل ما يحاول في هذين الفصلين لا يخرج عما قاله عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري فيما يتعلق بقضية النظم وعلاقة الكلمات ببعضها البعض"[24].

إن قضية التراث قضية بالغة الأهمية باعتبارها تتعلق بالذات والهوية والمستقبل العربي لذلك يجب العودة إليه وقراءته قراءة جديدة وبأدوات جديدة وبأسئلة جديدة وبوعي جديد يتناسب مع روح العصر بهدف تطويره والنهوض به وهذا ما يذهب إليه سعيد يقطين قائلا:" إن إعادة قراءة تراثنا الأدبي والفكري، ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجديد، من مستلزمات تكوين فكرة دقيقة ومتجددة عنه، وعن أبرز ملامحه وسماته، كما أنه من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويتنا ومستقبلنا"[25]

فهاهو زكي نجيب محمود الذي مارس الحداثة منهجا و رؤية و تطبيقا يصارحنا بكل صدق وتواضع قلما نجدهما عند غيره من النقاد و المفكرين، فبعد رحلة شاقة قطعها مع الغرب مؤمنا به وبقدراته الفكرية و المادية داعيا إلى اقتدائه قلبا و قالبا لأنه السبيل الوحيد للخلاص من هذا التخلف الحضاري، يعود هذا المفكر إلى الينبوع، وعن يقين يعود إلى الشرق، يبحث عن إشراق الشمس و انبثاق النور "ويدرك من خلال تحديات الحضارة أن الشروق لا يكون من الغرب ولكن من الشرق، وأن بقاء الشخصية العربية لا في ذوبانها و تقليدها لشخصية أخرى، ولكن في تعرفها قواها الذاتية ومعرفتها لطابعها الخاص وأسلوبها المميز"[26]. وبعدوقفة مطولة مع مساره النقدي يرى زكي نجيب محمود "أنه ابتعد كثيرا عن الطريق الذي كان يفترض أن يسير فيه فدراسته وتدريسه للفكر الأوروبي أعواما طوالا جعلته جاهلا بالتراث. و الفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ، و كانت أسماء الأعلام و المذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح"[27] ثم كان بعد ذلك أن أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة، فقد فوجئ في أنضج سنينه " بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ليست هي كم أخذنا من ثقافات الغرب و كم ينبغي لنا أن نزيد، إذ لو كان الأمر كذلك لهان، و إنما المشكلة كما اتضح بعد تلك السنين كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه و بين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها"[28].

---

[24]- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان،1984، ص 293

[25]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1،1997، ص 15

[26]– جلال العشري، زكي نجيب محمود وثورة العقل المعاصر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة طبعة1، 1998، ص88.

[27]– زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، طبعة2، 1973، ص5.

[28]– المرجع نفسه، ص6.

فالمعرفة التراثية ضرورة حضارية بل و وجودية بالنسبة للعرب، ليس من باب قراءة الحاضر والمستقبل بأعين ماضوية و لا اعتصار نصوص هذا التراث حتى نجعلها تضاهي منتجات الحداثة دون سبر أو تحليل و ليس كذلك من باب التباهي و تعزيز الثقة في الذات، و هذا أمر مشروع و لكن بالأساس باعتباره القاعدة المؤسسة لأي مطمح نهضوي وأي مطلب يرجو الحداثة و الانتظام في قيمها الكونية، يقول محمد سبيلا و هو من أبرز رواد الحداثة في المغرب و المتحمسين لها و العارفين بأسرارها : " إن التراث يسكننا و يسكن مخيلتنا و لغتنا و همومنا اليومية و وجداننا....و كل نهضة لابد أن تمر عبر التراث و الذين يقولون إن المشكلة التراثية مشكلة مفتعلة هؤلاء يقفزون على أهم نقطة في العقدة العربية و هي مسألة علاقتها بماضيها أي التراث"[29].

و هكذا يتبين لنا أن القول بالقطيعة مع التراث و طي صفحاته أمر لا يستقيم في تصور الكثير من النقاد و المفكرين، بل و يكون من السذاجة إغفاله أو الطموح إلى تحقيق حداثة بالقفز عليه باعتباره معطى ميت انتهت صلاحيته بانتهاء الظروف التاريخية والثقافية و الحضارية التي أنتجته، يتساءل محمد عابد الجابري وهو الذي يرى أن الحداثة مطلب ملح وضرورية بالنسبة للوجود العربي ذاته فيقول: "هل يمكن للعربي مثلا أن يجدد عقله في التراث الفرنسي أو الإنجليزي إن لم يكن قد عاش في فرنسا أو إنجلترا سنوات طويلة انسلخ خلالها من ثقافته العربية؟ ونحن العرب الذين نريد أن نبقى عربا و يكون لنا مكان في التاريخ المعاصر لابد أن نجدد عقلنا من داخل تراثنا حتى نبقى عربا، و لابد أن يكون التجديد مواكبا للثقافة المعاصرة العالمية منخرطا فيها وبذلك نحقق الأصالة و المعاصرة."[30]

خاتمة:

وهكذا وبناء على ما تقدم، نخلص إلى رحابة الرؤية النقدية عند محمد مندور وهي رؤية جمعت بين الوعي الكامل للمنجز الغربي ترفدها متابعة دقيقة لأبرز تيارات الأدب الحديث والمعاصر، وبين المسح الشامل للتراث النقدي العربي القديم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فهم عميق لدى ناقدنا الذي طالما ردد أن الاستفادة من تجارب الغير ومن التقدم الذي أحرزه الغربأمر ضروري، و هذا لن يتأتى - في رأيه- إلا بعد دراسة تراثنا العربي القديم بأدوات جديدة وبوعي جديد يتناسب وروح العصر.

---

[29]- محمد سبيلا، دفاعا عن العقل والحداثة، منشورات الزمن، العدد33، 2003، ص

[30]- محمد عابد الجابري، وجهة نظر، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، البيضاء، طبعة 1، 1973، ص189.

ونؤكد بدورنا أن المشكلة الحقيقية في حياتنا الثقافية والفكرية ليست هي كم أخذنا من الآخر وكم ينبغي أن نزيد، وإنما المشكلة الحقيقية كيف نوائم بين ما يأتينا من الغرب على نحو إيجابي يسلم بالعناصر المشتركة بين آداب الأمم و يسلم بالفروق العميقة بينهما، لأن تجاهل الخصوصية أو تجاهل الاختلاف بين الثقافتين الغربية والعربية هو الذي يؤدي بالكثير إلى الارتماء في أحضان الآخر ومن ثم التهديد بانمحاء الهوية الثقافية العربية.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد العربي، دار الأدب، بيروت، 1979 ص52

2- - فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب، 1988، ص30

3-محمد مندور، في الميزان الجديد، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1944، ص 104.

[4]- فاروق العمراني، تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، الدار العربية للكتاب،1988، 128

[5]- محمد مندور، في الميزان الجديد، ص90

6- المرجع نفسه، ص 72

[7]- محمد مندور، في الميزان الجديد، ص105

[8]- جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، د.ت، ص73

[9]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1996، ص17

[10]- محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد العربي، ص45

[11]- محمد مندور، مزيد من الدراسات الإنسانية، مجلة الكاتب، العدد 30/ سبتمبر 1963، ص5

[12]- محمد مندور، جولة في العالم الاشتراكي، سلسلة البحث الجديد، مصر1957، ص100

[13]- محمد مندور، الأدب ووحدة الفكر العربي، مجلة الكاتب/ العدد32 نوفمبر،1963، ص4

[14]- محمود الربيعي، من أوراقي النقدية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص41

[15]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة، ص5

[17]- المرجع نفسه، ص333

[18]- محمد مندور ، في الميزان الجديد، ص 185

[19]- محمد مندور، في الميزان الجديد، ص185

[20]- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص 339

[21]- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان،1984، ص 293

22- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1،1997، ص 15

[23]- جلال العشري، زكي نجيب محمود وثورة العقل المعاصر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة- طبعة1، 1998، ص88.

[24]- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، طبعة2، 1973، ص5.

[25]- المرجع نفسه، ص6.

[26]- محمد سبيلا، دفاعا عن العقل والحداثة، منشورات الزمن، العدد33، 2003، ص

[27]- محمد عابد الجابري، وجهة نظر، نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، البيضاء، طبعة 1، 1973، ص189.